الفصل الثاني

التسامح في ذروة قوة إمبراطورية روما

المجالدون، والأردية الرومانية الفضفاضة، و«الغراء» الإمبراطوري

ضمت [روما] الشعوب التي استعمرتها إلى صدرها ومنحت الجنس البشري اسماً مشتركاً، كانت على شكل «أم»، لا على شكل إمبراطورة، وأطلقت اسم «المواطنين» على الشعوب التي أخضعتها، وشدتها إليها في عناق طويل ومهيب. نحن مدينون في كافة مناحي حياتنا لعاداتها المسالمة: ...التي قادتنا كي نكون أمة واحدة.

– كلوديان، شاعر من القرن الرابع

«لا بأس بهم، فهم لم يعودوا يرتدون السراويل.»

– الإمبراطور كلوديوس، سنة ٤٨ بعد الميلاد في إشارة منه إلى الغاليين الذين أخضعهم بقوة السلام.

إذا كانت هناك إمبراطورية إيقونية في الغرب، فإنها روما. كانت من حيث المساحة، أصغر بقليل من مساحة الإمبراطورية الأخمينية؛ إلا أن روما كسلطة مطلقة فاقت سابقتها في كل مجال من مجالات الحياة. فحيث كانت فارس الأخمينية بالأساس آلة حربية، كانت روما بالإضافة إلى ذلك فكرة [١]. كان سكان

obeikandl.com

أقصى مناطق الإمبراطورية يرغبون في أن يكونوا «رومانيين» – وقد أصبحوا كذلك بالفعل. وبالإضافة إلى شبكة المواصلات المثيرة للإعجاب، والتي يبلغ طولها ٥٣٠٠٠ ميلاً من الطرقات المرصوفة والجسور التي كانت تربط بين البريطانيين والبربر، كان المرء يصادف في طريقه آلافاً من الحمامات الرومانية والمدرجات والمعابد المبنية بنفس المواصفات المعمارية تقريباً، وكانت مليئة بالمواطنين الرومان الذين يرتدون الأردية البيضاء الرومانية الفضفاضة التقليدية. وكانت اللغتان الإغريقية والرومانية تكفيان لتسهيل التواصل بين مئات الآلاف من التجار الذين كانوا يجوبون أنحاء الإمبراطورية، أو «كافة أنحاء العالم»، كما كان يطلق عليها سكانها.

بلغ عدد سكان الإمبراطورية في ذروة مجدها ما يقارب الستين مليوناً من المواطنين داخل نطاق حدودها. كانت الإمبراطورية من الاتساع بحيث أن الرومان كانوا يميلون إلى الاعتقاد بأن روما امتدت لتشمل كل حدود العالم المأهول. وقد ساد اعتقاد بأن تيرمينوس، إله الحدود كان غائباً عند ولادة روما [٢].

استناداً إلى المؤرخ أنتوني باغدين، فإن الرومان كان تحدوهم الرغبة في «السيطرة على العالم». قامت الجمهورية منذ سنة ٧٤ قبل الميلاد بصك نقود معدنية منقوش عليها رسم لصولجان، والعالم، وإكليل ودفّة» – وهي رموز لهيمنة روما على العالم. كانت صورة الامتداد العالمي للإمبراطورية واضحة حتى بالنسبة إلى المواطن العادي الذي كان يشاهد أسوداً من سورية، وثيراناً من بلاد الإغريق، وفهوداً من تونس، ودببة من إنجلترا تتصارع جميعها مع مجالدين من طبقة العبيد من المدرجات الهائلة الحجم في الإمبراطورية مثل صرح الكولوسيوم في روما، الذي كان يتسع لحوالي خمسين ألف متفرج في المناسبات الدورية. وبحسب ما قاله سينيكا –وهو كاتب مسرحي وفيلسوف روماني عاش في القرن الأول الميلادي– فإن «الرومان كانوا يقيسون حدود أمتنا من خلال الشمس.» وفي منتصف القرن الثاني، اتخذ الإمبراطور أنطونيوس بيوس لنفسه لقب «ملك العالم بأسره» [٣].

لم تكن روما مجرد قوة عسكرية عظمى، بل كانت تمثل ذروة جديدة من ذرى الحضارة الغربية، وقد ارتقت إلى القمة في مجالات العلوم والآداب والفنون التي لم يتم مجاراتها فيها إلا بعد ألف سنة. فبالإضافة إلى شعراء كلاسيكيين وفلاسفة أمثال فيرجيل وسينيكا، أنتجت روما شخصاً يدعى غالين، وهو طبيب المجالدين، الذي بقيت كتبه الطبية تدرس على نطاق واسع في أوروبا حتى القرن الخامس عشر، وكذلك عالم الفلك، توليمي. أصدر بلايني الأكبر – الذي توفي نتيجة لانفجار بركان جبل فيسفيوس سنة ٧٩ ميلادية – كتابه الشهير **التاريخ الطبيعي** Natural History ، والذي يعتبر واحداً من أقدم الأعمال الموسوعية في العالم، بالإضافة إلى الكتب العشرة التي ألفها المهندس المعماري الروماني فيتروفيوس، والتي كانت ملهمة للبنائين في عصر النهضة في إيطاليا، وذلك بعد ألف سنة على وفاة مؤلفها؛ كما أرست روما معايير عالمية جديدة للحكومة التمثيلية. منح الإمبراطور كركلا سنة ٢١٢ ميلادية الجنسية لكل مواطن حر ذكر ولد في الإمبراطورية الرومانية. وكان منح حق الاقتراع لكافة المواطنين قد أخذ روما إلى موقع متقدم وبعيد جداً عن بلاد الإغريق، أو أي حضارة قديمة أخرى من خلال مشاركة الأفراد في العملية السياسية.

استمرت «عظمة روما» على امتداد ألفيتين من الزمن بدءاً من تاريخ بنائها من قبل بانيها رومولوس سنة ٧٥٣ قبل الميلاد إلى حين سقوط القسطنطينية على يد الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ ميلادية. وكان حكام روما من بين الأشهر في التاريخ، إما بسبب فتوحاتهم أو بسبب بطشهم. وقد منحنا يوليوس قيصر وأغسطس قيصر اسمي شهرين من شهور السنة؛ أما اسم كاليغولا، فقد ارتبط فعلياً بالاستبداد والفقر. إلا أن معظم المؤرخين يجمعون على أن روما في ذروة قوتها بين سنتيّ ٧٠ و١٩٢ ميلادية كانت تمثل نقطة الأوج في الحضارة الرومانية.

كانت الإمبراطورية في ذروة قوتها تتمثل في أربعة من الأباطرة المتعاقبين على الحكم وهم: تراجان، وهادريان، وأنطونيوس بيوس، وماركوس أريليوس؛ وكان كل

منهم يتصرف بموجب الممارسات الرومانية المعهودة المتمثلة في تبني ابن من أجل تهيئته كي يكون الإمبراطور التالي. خلال تلك الحقبة، ساد السلام الروماني، وتبادلت الأقاليم الرومانية من اسكتلندا الجنوبية إلى المدن الزراعية في غرب إفريقيا المصالح التجارية فيما بينها. وضع المؤرخ الألماني تيودور مومسن من القرن التاسع عشر يده على جوهر ذلك العصر عندما ذكر أن» من النادر أن تدار حكومة العالم على امتداد تلك المدة الطويلة من الزمن بهذا الشكل من التعاقب المنظم»[٤]

هذا الفصل غير معني البتة بعرض لتاريخ الإمبراطورية الرومانية؛ لكنني سأقوم بدلاً من ذلك، بالبحث في الطريقة التي ساعد فيها التسامح روما على الابتعاد كثيراً عن أقرب منافسيها على المستوى الكوني، والتحول إلى قوة مطلقة في الزمن الذي وجدت فيه. سوف أركز أيضاً على العوامل التي ساعدت إمبراطورية روما في البقاء في هذا الموقع الاستثنائي طيلة تلك الفترة – وهو موضوع يهم بشكل خاص، الولايات المتحدة التي تتبوأ موقع القوة المهيمنة على العالم منذ أقل من عقدين.

روما العالمية: الموطن الأصلي الوحيد لكل شعوب العالم

قامت روما الإمبراطورية بعملية دمج للأمم التي فتحتها من خلال تحويلها إلى «أقاليم» تابعة للإمبراطورية الرومانية، تماماً كما فعلت بلاد فارس الأخمينية. وكان هناك أربعون من تلك الأقاليم تقريباً في أوج قوة الإمبراطورية. وعلى خطا أسلافهم الأخمينيين، جيّر الرومان خدمات النخب المحلية للمساعدة في حكم تلك الإمبراطورية الشاسعة. أبقوا على تماسك تلك الحكومات المحلية بنسبة كبيرة، وهم بذلك، سمحوا لها بالاستمرار في تسيير أمور الحكم اليومية لرعاياها.

لكن بعكس بلاد فارس الأخمينية، أو أي إمبراطورية قديمة أخرى، لم يكن هناك سقف أو حدود للسلطة التي تمارسها تلك النخب في الأقاليم التابعة للإمبراطورية الرومانية. وحيث كان جميع ملوك الأخمينيين الفرس، وكل حكام الأقاليم فعلياً من

الفرس، فإن الحال في روما لم تكن كذلك؛ فالذين يمسكون بمفاتيح أعلى السلطات في روما – وصولاً إلى الإمبراطور نفسه – كانوا من أصول تنتمي إلى كافة أصقاع الإمبراطورية. كتب في هذا الصدد، المؤرخ كورنيليوس تاسيتوس أن «الأباطرة كان يمكن أن يؤتى بهم من أي مكان إلا من روما.» فالإمبراطور تراجان الذي حكم من سنة ٩٨ إلى سنة ١١٧ ميلادية، ولد في إسبانيا. وكان من بين كبار مستشاريه إغريقي ومغربي؛ أما الإمبراطور غايوس يوليوس أليكساندر بيرينيكيانوس فهو ينحدر من سلالة الملك هيرود الكبير.

كان تراجان الذي ولد لأم إسبانية الإمبراطور الروماني الأول الذي أتى من الأقاليم، وكان تبوؤه لهذا المنصب بمثابة مؤشر على أن أعلى المناصب في الإمبراطورية الآن «متاحة لكل المتعلمين بغض النظر عن العرق أو الجنسية.» وكان هادريان، خليفة تراجان ينتمي أيضاً إلى أصول إسبانية، أما خليفة هادريان، أنطونيوس بيوس، فكان ينحدر من عائلة من بلاد الغال. وكان والد الإمبراطور الذي تلاه وهو ماركوس إيرليوس من الأندلس، أما سيبتيميوس سيفيريوس الذي حكم من سنة ١٩٣ إلى سنة ٢١١ ميلادية، فقد كان إفريقياً متزوجاً من امرأة سورية. لقد تعايش الناس من مختلف الألوان والخلفيات والتقاليد الثقافية في روما، «المدينة الخالدة».

خرجت من الأقاليم نخبٌ رومانية في كل مناحي الحياة. فالشاعر والكاتب المسرحي سينيكا كان أسبانياً. وكان تاسيتوس في الغالب من بلاد الغال. أما الخطيب المفوه فرونتو، ومعلم ماركوس إيرليوس فكان إفريقياً. في أوج ازدهار روما الإمبراطورية، كانت «الرومانية» تعني هوية ثقافية مهدت الطريق أمام المواطنين – حتى أولئك الذين وصفهم سيسيرو «بالأمم البدائية والبربرية» – للانخراط في العملية السياسية، والمشاركة في السلطة والامتيازات التي تتمتع بها الإمبراطورية[٥].

تعلمت روما، من خلال تبني هذه الرؤية المتسامحة من تاريخ بلاد الإغريق القديم، حيث تسببت سياسة التعصب الأعمى والانقسام العرقي إلى قلاقل أدت

إلى إشعال الحروب. ولقد شرح الإمبراطور كلوديوس بطريقة رائعة منطق التسامح الروماني، وذلك في خطاب ألقاه أمام أعضاء مجلس الشيوخ سنة ٤٨ ميلادية، وأكد فيه على ضرورة السماح للقبائل الغاليّة التي انتصروا عليها مؤخراً بالمشاركة في الحكم. في معرض حديثه إلى مجلس الشيوخ، قال كلوديوس:

> ما الذي أدى إلى سقوط كل من إسبارطة وأثينا سوى احتقارهما للشعوب التي فتحا بلدانها ومعاملتهما لها كأجانب؟ لكن حكمة مؤسس إمبراطوريتنا رومولوس جعلته في العديد من المناسبات يحارب الشعوب، ويمنحها الجنسية الرومانية في اليوم نفسه! كان من بين ملوكنا غرباء؛ وهكذا فإن تعيين أبناء الحرية في مناصب عليا ليس أمراً استثنائياً، كما يشاع بصورة خاطئة، بل هو أمر متعارف عليه في الإمبراطورية الرومانية القديمة. ...ومع ذلك، فلو أمعنا النظر في كل الحروب التي خضناها، لوجدنا أن هذه الحرب الأخيرة التي خضناها ضد الغاليّين كانت أقصرها على الإطلاق؛ ومنذ ذلك الوقت حل السلام الدائم والموالي لنا هناك. والآن، وقد تم الدمج بيننا وبينهم من خلال روابط العادات والثقافة والتزاوج، اسمحوا لهم بأن يشاركونا ذهبهم وثرواتهم بدلاً من القيام بعزلهم.

وافق مجلس الشيوخ على ذلك؛ وبعدها، كما يقول إدوارد غيبون، «أصبح أحفاد الغاليّين الذين حاصروا يوليوس قيصر في أليسيا، قادة فرق، وحكاماً لأقاليم، كما تم تعيينهم في مجلس الشيوخ. وتوجه طموحهم بشكل حميم نحو سلامة الدولة وتكريس عظمتها بدلاً من إثارة القلاقل فيها.»

أرست الإمبراطورية الرومانية معايير جديدة للتسامح. وكما لاحظ جيمس ويلسون، سنة ١٧٩٠، وكان واحداً من القضاة في المحكمة العليا في الولايات المتحدة، وأحد المشاركين في وضع مسودة الدستور الأمريكي «أن من الممكن القول إن الرومان ليسوا هم من توسعوا في كافة أنحاء المعمورة، بل إن سكان المعمورة هم الذين تدفقوا على الرومان.» كان من الواضح بالنسبة لويلسون أن «التسامح الذي مارسته روما أكثر الوسائل نجاعة لتوسيع رقعة الإمبراطورية» [٦].

كانت هناك - بطبيعة الحال - حدودٌ لإطار التسامح والاحتواء في روما. كانت

النساء مستثنيات بشكل شبه كامل من الحياة العامة؛ فلم يكن يسمح لهن بممارسة حق الاقتراع، أو تبوء أي منصب حكومي، أو ارتداء رداء التوغا الفضفاض. والأدهى من ذلك، حتى عندما كان لجميع المواليد الأحرار من الذكور في الإمبراطورية الحق في الحصول على الجنسية الرومانية، فلم يكن يتمتع بهذه المكرمة إلا نسبة محدودة جداً منهم؛ ذلك أن عدد المواليد من العبيد فاق بكثير عدد المواليد من الأحرار، وكان أولئك العبيد يرغمون على العمل في الحقول لإطعام سكان المدن الرومانية الكبرى.

كانت وسائل الاستعباد عديدة ومتنوعة. وكان من بين من وجدوا أنفسهم معروضين للبيع في سوق النخاسة أسرى الحروب، وزوجاتهم وأبناؤهم، وضحايا القراصنة والخاطفين، وأبناء العبيد، والأطفال الذين باعهم آباؤهم إلى النخاسين، ورجال تم القبض عليهم لعجزهم عن سداد الديون المستحقة عليهم لجباة الضرائب، والبالغون الأحرار الذين يعرضون أنفسهم للبيع. كما كان العبيد يعانون بأشكال متفاوتة. فبعضهم كان يتم شراؤه من أجل رعي الماشية؛ وآخرون كانوا يقدمون خدمات جنسية؛ والبعض الآخر كان يخدم في مجال الأعمال المنزلية حيث كان يتم تدريبهم بشكل جيد، كما كان يتم تعليمهم اللغة اللاتينية. كان أسوأ هؤلاء حظاً من كان يتم إرسالهم إلى حلبات المصارعة التي ينفذها المجالدون – ولكن ليس كمتفرجين. كانت الوحوش الضارية تمزق الآلاف منهم إرباً، إرباً مع المجرمين في الوقت الذي كانت الجماهير الهادرة تشهد ما يجري بكثير من الإثارة. «كان الكثير من الضحايا يوضعون على خوازيق، ثم تبقر بطونهم كي يكون بإمكان الأطباء الذين كانوا يشاهدون هذه الألعاب دراسة بنيتهم التشريحية.» كان الرجال والنساء على حد سواء، يُضرَبون، ويُشوهون، ويجلدون وتبقر بطونهم. وكان الأطفال يعلقون من أقدامهم في الوقت الذي تُفلت الضباع من عقالها وتبدأ في تمزيق أجسادهم.

ومع ذلك، من الخطأ الافتراض بأن مزايا الإمبراطورية الرومانية لم تتجاوز أبداً حدود قاعدة المواطنين الرومان. فطالما كان الرعايا يدفعون ما كان يجب عليهم دفعه من الضرائب التي كانت خفيفة في الأحوال العادية، كانت روما تترك

المجموعات المحلية، بعاداتها وتقاليدها المحلية، وشأنها. وكان رعايا الإمبراطورية من بريطانيا وبلاد الرافدين يستفيدون من الإيقونة الرومانية والقانون الروماني الذي وفر النظام والاستقرار بشكل لم يشهد له التاريخ مثيلاً من قبل [٧].

كيف تبني إمبراطورية؟

استناداً إلى ما ذكر في الأسطورة الرومانية، قام الأخوان التوأم، رومولوس وريموس بتشييد روما سنة ٧٥٣ قبل الميلاد على موقع قرب نهر "تايبر"، وذلك في المكان نفسه الذي عثرت عليهما فيه وأرضعتهما ذئبة حيث كانا موضوعين هناك في سلة. كان رومولوس في موقف دفاعي على ما يبدو؛ ذلك أن شائعة سرت بأنه قام بقتل أخيه ريموس لأن هذا الأخير مازحه قائلاً إن جدران المدينة التي بناها رومولوس كانت خفيضة جداً. بالرغم من ذلك، أصبحت روما معروفة بكرمها، خصوصاً تجاه المهاجرين القادمين إليها من مختلف أنحاء إيطاليا. استناداً إلى الحكاية التاريخية، وافق الرومان الأوائل على ضم السابينيين المجاورين إلى المدينة كي يتجنبوا الصراع الناجم عن قيام الرومان بخطف النساء السابينيات. وقد كتب الخطيب المفوه سيسيرو سنة ٥٦ قبل الميلاد أن «من بين أهم الأسباب التي أدت إلى بناء الإمبراطورية الرومانية، وذياع صيت الشعب الروماني أن رومولوس، مؤسس المدينة وبانيها وجهنا من خلال المعاهدة التي أبرمها مع السابينيين أن المدينة يجب أن تتوسع حتى لو كان من خلال قبول الأعداء في خانة المواطَنة الرومانية. ولذلك فإن أسلافنا، واقتداء بسلطته والمثل الذي ضربه، لم يتوقفوا أبداً عن منح الجنسية الرومانية لأولئك».

في القرون التي تلت، تبنى الرومان تكتيكات مشابهة من أجل ضم قبائل إيطالية أخرى مثل الإيتروسكانيين والأمبريانيين ووضعها تحت مظلة روما. فبدلاً من عمليات السلب والنهب التي تلي عادة هزيمة الأعداء، كانت روما تعرض على أعدائها معاهدات سلام كانوا نادراً ما يرفضونها. وكانت الشروط الواردة في هذه

المعاهدات بسيطة في غالب الأحيان. فالمدن المفتوحة يمكن لها أن تُحكم من قبل الحكام أنفسهم الذين كانوا يحكمونها بالفعل قبل الغزو استناداً إلى قوانينهم المحلية بشرطين. الأول هو أن هذه المدن يمكن لها أن تمارس المبادلات التجارية مع روما وليس بين تلك المدن نفسها، وبهذه الطريقة أصبحت الممالك الصغيرة تعتمد اقتصادياً على روما بصورة مطردة. أما الشرط الثاني فيتعلق بضرورة تزويد روما بقوات مسلحة [٨]. ساعدت هذه التحالفات روما في تعزيز قوتها الاقتصادية والعسكرية بشكل دراماتيكي. ومع حلول سنة ٢٧٥ قبل الميلاد، أصبحت روما أكبر دولة في أوروبا، وكانت تغطي مساحة قدرها ٥٠٠٠٠ ميلاً مربعاً من منطقة روبيكون في شمال إيطاليا وصولاً إلى مضائق ميسينا قبالة السواحل الشرقية لإيطاليا. بعد مرور عقد على ذلك، بدأت روما بتعزيز سيطرتها على كل مناطق غرب البحر الأبيض المتوسط. أسفرت حروب البونيك التي استمرت أكثر من مئة سنة عن فتح روما لجزر صقلية وسردينيا وكورسيكا. لكن هذه الحروب انتهت بهزيمة روما على يد جيش هانيبعل الهائل، الذي يضم كتيبة من الفيلة في زاما، أي ما يعرف بتونس الحديثة سنة ٢٠٢ قبل الميلاد.

أبرزت حروب البونيك النجاح الذي أحرزته سياسة التسامح التي اتبعتها روما. كانت إستراتيجية هانيبعل تستند إلى القناعة بأنه، بعد الانتصارات المتلاحقة التي حققتها قرطاجة، فإن حلفاء روما من الإيطاليين سوف ينتهي بهم الأمر إلى هزيمة سريعة. ولكن، ولدهشة هانيبعل، وعلى الرغم من العديد من المعارك الشرسة التي تم خوضها، قاوم حلفاء روما بثبات، وهو ما أدى إلى انتصار روما في نهاية المطاف.

كانت روما جاهزة أيضاً بطبيعة الحال، للتعامل بوحشية مع المدن المعادية التي ترفض الإذعان لها. بالنسبة إلى قرطاجة نفسها -على سبيل المثال- فقد أطلق كاتو تصريحه الشهير أنه «يجب تدمير قرطاجة». وبعد ثلاث سنوات على بدء الحرب البونيكية الثالثة سنة ١٤٩ قبل الميلاد، سويت قرطاجة بالأرض، وتم ذبح معظم سكانها، وتم ضم أراضيها واعتبارها إقليماً رومانياً جديداً [٩].

شكل فتح روما لقرطاجة تحولاً مهماً في السياسة الرومانية أدى إلى خط جديد لا رجعة عنه في توجه الإمبراطورية. فقد امتنعت روما في مراحل توسعها الأولى عن القيام بعمليات الضم المباشر للأراضي التي تحتلها. وكان الأباطرة الرومان الأوائل يقومون بدلاً من ذلك بتوسيع رقعة الإمبراطورية وذلك من خلال إنشاء دول وفضاءات تابعة لسلطتها، وكذلك من خلال استعمال الجيوش الهجومية لإلقاء الرعب في قلوب أي أعداء محتملين. وهكذا، وفي أثناء الحروب البونيكية، كان من الصعب تحديد الحدود الحقيقية للإمبراطورية الرومانية بدقة.

إلا أن الإستراتيجية الرومانية تغيرت مع حلول القرن الأول الميلادي. فقد قاد أباطرة رومانيون حملات عسكرية من أجل ضم أراضٍ كانت قد فتحت بالفعل من قبل - من ويلز إلى أرمينيا، ومن سويسرا إلى الأردن - واضعة هذه المناطق بالتدريج تحت سلطة روما المباشرة. وبدأت حدود روما تتحدد بصورة أكثر وضوحاً، وكانت تشكل مجاري الأنهار خطوط هذه الحدود. بعد الانتهاء من رسم حدود الإمبراطورية، صب أباطرة الرومان موارد هائلة من أجل بناء تحصينات حدودية مثل جدار هادريان شمال إنجلترا. في الوقت نفسه، قاموا بتوسيع هائل في شبكة الطرق الرومانية المرصوفة، وهو ما وفر للفرق الرومانية الإمبراطورية سهولة وسرعة الحركة لقمع الثورات حين نشوبها، أو صد هجمات الغزاة البرابرة.

لم يتدخل الأباطرة الرومان إلا في الحدود الدنيا في حياة رعاياهم، ولم يقوموا بفرض أي إصلاحات اقتصادية أو اجتماعية تذكر حتى عندما كانوا تحت السيطرة المباشرة لأولئك الأباطرة. يصف أحد المصادر الإمبراطورية الرومانية بأنها في الواقع، «حكومة من دون بيروقراطية». في الحقيقة، كانت مركزيتها أخف بكثير بالمقارنة مع إمبراطورية "الهان" الصينية المعاصرة لها، والتي استخدمت بيروقراطيين في الأعمال الحكومية أكثر من الإمبراطورية الرومانية بما يقرب من عشرين مرة.

توسعت روما بين سنتي ١٥٠ و ٧٠ قبل الميلاد بسرعة مدهشة حيث شمل ذلك معظم أوروبا القارية، وآسيا الوسطى، (تركيا الآن) وأغلب مناطق الشرق الأوسط بما في ذلك فلسطين وسوريا ومصر. في أثناء تلك الحملات العسكرية، منحت روما حقوق المواطنة للنخب المهزومة في الوقت الذي أنزلت أشد أنواع العقاب بالبلدان التي قاومت الحكم الروماني. وبعد ستة قرون على إنشائها، استطاعت روما أن تتحول من مملكة صغيرة إلى إمبراطورية عالمية أحاطت بالبحر الأبيض المتوسط من كل جنباته، محولة ذلك البحر الشهير إلى بحيرة رومانية [١٠].

عصر روما الذهبي

يختلف المؤرخون حول توقيت عصر روما الذهبي، أو الحقبة التي شهدت أوج قوتها، إلا أن هناك إجماعًا على أن ذلك العصر امتد طيلة مدة حكم أربعة أباطرة بدءاً بتراجان الذي حكم من سنة ٩٨ إلى سنة ١١٧ ميلادية، وكانت الأجيال الرومانية التالية تطلق عليه وصف «أفضل حاكم» [١١]. كان يتمتع بشعبية وحيوية، وكان من السهل على الآخرين الوصول إليه ومقابلته، وكان تراجان يشتهر أيضاً بفتوحاته العسكرية العظيمة وتميزه في ممارسة الحكم. توسعت حدود الإمبراطورية الرومانية تحت حكم تراجان إلى أن وصلت إلى مياه الخليج الفارسي؛ وهو إنجاز لم يصل إليه أي قائد روماني أبداً. من الواضح أنه عاد من فتوحاته في داسيا التي تعرف الآن برومانيا بملايين من أرطال الذهب والفضة – وهي آخر مرة تحصد فيها روما مثل هذا الكم الهائل من الأرباح كغنيمة من أي حرب خاضتها.

طبّقَ تراجان في الوقت نفسه، واحداً من الأمثلة القليلة عن التشريع الاجتماعي في العالم القديم، من خلال طرحه لبرنامجه الشهير القاضي بإقراض المال للمزارعين بفوائد يعود ريعها لدعم الأطفال من ذوي الحاجة. شكل إرث تراجان بوصفه حاكمًا عادلاً ومنصفًا الأساس لدعاء كان يردد في مجلس الشيوخ في القرن الرابع كي يكون الحاكم الجديد «أفضل من تراجان». تَصَوّره دانتي في القرون

الوسطى كأحد الملحدين الذين سوف يطلق سراحه من النار نتيجة لصلوات البابا غريغوري.

كان هادريان، خليفة تراجان في الحكم، وهو الذي حكم بين سنتيّ ١١٧ و ١٣٨ ميلادية، عالمي النزعة، وتمثل ذلك في شغفه بالثقافة الإغريقية، كما كان واحداً من أعظم الإداريين في التاريخ الروماني. أوقف هادريان حروب روما التوسعية، وركز اهتمامه بدلاً من ذلك على تعزيز قدرات الإمبراطورية الدفاعية، وعلى تطوير الإمبراطورية. وهكذا، فبالإضافة إلى بناء جدار هادريان الذي بلغ طوله ثمانين ميلاً، قام بالإشراف على بناء مدن جديدة، ومعابد، وحمامات، وموانئ، ومسابح رياضية وقناطر ومدرجات للمسارح على امتداد الإمبراطورية. كان قائداً دائم الاستعداد، وشغوفاً بالسياحة؛ فقد قضى هادريان أكثر من نصف مدة حكمه البالغة إحدى وعشرين سنة خارج إيطاليا وهو يجوب الأقاليم الرومانية، متفقداً مدى استعداد جنوده، وأحياناً، الإقامة بينهم والتدرب معهم.

بالرغم من أن هادريان كان ذائع الصيت كحاكم متسامح، فقد عرفت عنه أيضاً فِعلةٌ اعتبرها الكثيرون متعصبة بشكل جوهري. قام هادريان بمنع الختان، وهو الإجراء الطقسي المطلوب القيام به بالنسبة للمواليد الذكور بحسب القانون اليهودي، نظراً إلى تأثره الشديد برؤية الإغريق المثالية للجسد البشري،. (ربما اعتبر هادريان المعجب بالثقافة الهيلنستية أن الختان يشكل اعتداء على الجسد البشري؛ كما قام أيضاً بتجريم عمليات الإخصاء). أدى هذا المنع، بالإضافة إلى قراره القاضي بإقامة مستعمرة رومانية في القدس، إلى اندلاع حركة عصيان يهودية بين سنتيّ ١٣١ و ١٣٥ ميلادية قادها سايمون كوشبا. وبعد انتهاء العصيان،قام هادريان كما ذكرت ذلك عدة مصادر قديمة، بطرد اليهود من القدس، وبنى معبداً لجوبيتر على أنقاض معبد يهودي قديم، وأمر بإقامة تمثال له داخل المعبد. ولكي يزيد الطين بلة، وضع تمثالاً لخنزير من المرمر في ساحة المعبد. (كان الخنزير يرمز بوضوح إلى الفرقة الرومانية التي قاتلت اليهود) [١٢].

كان هذا العمل المتعصب استثناء وليس قاعدة في عصر روما الذهبي. سمح لليهود مجدداً بعد وفاة هادريان، بممارسة شعائرهم الدينية، كما تم إعفاؤهم من القوانين الرومانية التي تتناقض وعقائدهم الدينية. وصل الأمن والازدهار في الإيقونة الرومانية إلى أوجهما خلال مدة حكم أنطونيوس بيوس، خليفة هادريان (١٣٨- ١٦١). لم يغادر أنطونيوس بيوس إيطاليا مطلقاً بعد أن أصبح إمبراطوراً، وذلك بعكس كل من تراجان وهادريان اللذين عرف عنهما نزوعهما الدائم نحو التجوال في كافة أنحاء الإمبراطورية. وبالرغم من قيامه بشن بعض الحروب الصغيرة في اسكتلندا وشمال إفريقيا لحماية حدود الإمبراطورية، فقد فضل استخدام الدبلوماسية والتهديد باستخدام القوة لردع أعدائه المحتملين. وصف ماركوس إيرليوس، خليفة أنطونيوس بيوس هذا الأخير كما يلي: «كان موقفه من الآلهة غير مبني على الخرافات، كما أنه لم يكن ينشد أي معروف من البشر - لم يحاول إغراق الناس بالهدايا، أو المجاملات، بل كان معتدلاً في كل مناحي الحياة، من دون أن يقوم بممارسة أي فعل خسيس، أو يظهر أي حب للتجديد من أجل التجديد فقط.»

كان ماركوس إيريليوس الذي حكم من سنة ١٦١ إلى سنة ١٨٠ ميلادية يمثل تجسيداً لمقولة الملك الفيلسوف وذلك أكثر من أي إمبراطور آخر. انحدر من عائلة قوية لها جذور في مجلس الشيوخ، وهو ما استرعى انتباه هادريان الذي أغدق عليه لقب «فارس» وهو ما يزال صبياً في سن الخامسة، وأكد على ضرورة أن ينال أفضل قسط ممكن من التعليم المتوافر حينذاك. عندما أصبح في سن الثانية عشرة اختار ماركوس إيريليوس حياة الفيلسوف الزاهد. ارتدى عباءة خشنة، وبدأ يفترش الأرض إلى أن أقنعته والدته «بأن ينام على سرير صغير مغلف بالجلود.» أبحر ماركوس إيريليوس بإمبراطوريته بنجاح عبر خضم متلاطم من التحديات، بما في ذلك الوباء الرهيب الذي ضرب سنة ١٦٩ ميلادية، والغزوات الألمانية التي وقعت في مرحلة لاحقة من فترة حكمه. كانت الإمبراطورية الرومانية ما تزال في أوج مجدها وأكثر قوة من أي إمبراطورية في تاريخ أوروبا عندما توفي سنة ١٨٠ ميلادية [١٢].

وماذا عن الاقتصاد الروماني؟ يعطينا عالم البلاغة الإغريقي إيليوس أرسيديتس لمحة عن ذلك عندما دون في منتصف القرن الثاني الميلادي ما يلي:

> تصل العديد من السفن التجارية إلى هذا المكان، وعلى متنها كل أنواع البضائع من كل الأصقاع في كل ساعة من كل يوم لدرجة أن المدينة تحولت إلى مصنع يشترك فيه كل العالم. ... تحدث هيسيود عن حدود المحيط واصفاً إياه بأنه المكان الذي يتم فيه توجيه كل شيء نحو البداية والنهاية. وهكذا، كل شيء يتجمع هنا دفعة واحدة - التجارة، والسفر عن طريق البحر، والزراعة، ونفايات المناجم، وجميع الحرف السائدة، وأيضاً، المنقرضة، وكل ما تم إنتاجه أو زراعته. هنا، يرى المرء كل ما قد يخطر بباله مما هو موجود، أو وجد يوماً ما، على الأرض.

كانت روما في أوج قوتها نموذجاً ما قبل حداثوي للعولمة الاقتصادية: تجارة حرة، وأسواقًا مفتوحة تجعل الخبير الاقتصادي في شيكاغو يشعر بالفخر. توقفت الضرائب المفروضة على الاستيراد ما بين الممالك الرومانية في الوقت الذي كانت روما تعزز من سلطتها. وبينما كان يتم تعزيز تحصين حدود الإمبراطورية، تحولت روما إلى منطقة تجارة حرة هائلة حيث تدفق زيت الزيتون الإفريقي وزيت السمك الإسباني الفاخر على الأسواق من اسكتلندا إلى قبرص. ازدهرت التجارة بشكل لم يسبق له مثيل مدعومة بالإيقونة الرومانية، وبشبكة استثنائية من المواصلات من بينها الأنهار الأوروبية، والطرق البحرية في البحر الأبيض المتوسط، إضافة إلى الطرقات الرومانية الشهيرة.

توسع «الاقتصاد العالمي» لروما إلى أن وصل إلى الشرق الأقصى. أبحر التجار الرومان عبر المحيط الهندي، وسافروا على طريق الحرير، وحملوا معهم في طريق العودة التوابل الفاخرة، والعطور وكل أنواع الحرير والأقمشة الفاخرة إلى أسواق الإسكندرية وروما، ولندن. في المقابل، كانت روما تتاجر بالمواد الزجاجية، والنقود الذهبية، وبضائع أخرى تم اكتشافها في أماكن قصية مثل فيتنام وماليزيا. كما قام الرومان منذ سنة ٢٨٩ قبل الميلاد بإنتاج قطع نقدية برونزية لتأمين حاجات الإمبراطورية التجارية، طارحين في السوق عملة موحدة، وهو إنجاز يضاف إلى جملة من العوامل التي جعلت من روما قوة مطلقة على الصعيد الاقتصادي [١٤].

ولكن لم تكن البضائع وحدها هي ما تنتقل بسهولة وحسب؛ إذ إن روما استطاعت اجتذاب أشخاص مهرة وموهوبين من كل أصقاع الإمبراطورية. فقد كان من الطبيعي جداً أن يكون ضمن الجيش الروماني «رماة سهام من كريت، وقاذفو حجارة باليريون»، وسيّافون أسبان، وبحارة من جزيرة رودس الإغريقية. وكان التجار السوريون واليهود والأرمن يتدفقون إلى روما ومنها حاملين معهم الذهب والعاج والأخشاب الثمينة» من إفريقيا، والتوابل من شبه الجزيرة العربية، «واللآلئ والأحجار الكريمة» من الهند، والحرير من الصين، «والفراء من آسيا الوسطى وروسيا»، و«العنبر من ألمانيا واسكندنافيا». وكان رعايا الإمبراطورية من كافة أجزائها، باستثناء العبيد والخدم المرتبطين بخدمة أسيادهم في البيوت والحقول، يتمتعون بحرية التنقل في أرجائها بحرية غير مسبوقة.

في الوقت نفسه، وفرت روما فرصاً عظيمة لرعاياها للارتقاء على سلم الشهرة، حتى في المناطق النائية. تروى حول هذا الموضوع قصة مثيرة للإعجاب من خلال نقش وُجد في مدينة صغيرة في شمال إفريقيا في تاديس، أو ما يعرف اليوم بالجزائر؛ تعرض هذه القصة لحياة الابن الثاني أو الثالث لأحد الإقطاعيين المحليين من البربر. غادر هذا الصبي الذي عرف فيما بعد، باسم كوينتوس لوليوس أوربيكوس، شمال إفريقيا باتجاه آسيا وفلسطين ومنطقتيّ الدانوب والراين السفلى، وارتقى بتؤدة وثبات درجات السلم الإمبراطوري إلى أن أصبح في نهاية المطاف حاكماً لبريطانيا حيث قاد الجيش الإمبراطوري باتجاه اسكتلندا بهدف توسيع حدود الإمبراطورية. وحصل كوينتوس في نهاية أيامه على لقب المواطن المثالي في روما [١٥].

«إله الناس»

لم تكن العنصرية بمعناها الحديث موجودة في روما. الدلائل التي تؤكد على أن الرومان اعتبروا أن أصحاب البشرة الفاتحة أرقى عرقاً من أصحاب البشرة الداكنة، أو العكس هي دلائل ضعيفة. ولكن هناك نقطة لا بد من توضيحها لتجنب أي شكل من أشكال سوء التفاهم: كان الرومان متعالين؛ ولم يكونوا ينظرون إلى

الأقوام الأخرى على أنها مساوية لهم. على العكس من ذلك، اعتبر الرومان أنفسهم مختارين من الآلهة، «كي يقوموا بتمثيلها بين بني البشر». وكانت في أذهانهم أعداد كبيرة من الصور النمطية غير المحببة حول الشعوب التي استعمروها.

وهكذا فإن سكان أيرلندا «همجيون بالكامل، وحياتهم مليئة بالبؤس بسبب الطقس البارد.» أما جيرانهم الاسكتلنديون فهم من «الكاليدونيين والميتانيين العراة» فقد «استوطنوا في المستنقعات طيلة حياتهم، ولم يكن يظهر منهم سوى رؤوسهم التي تبرز مثل نتوءات فوق سطح الماء، وكانوا يقتاتون على طحالب المستنقعات التي أبقتهم على قيد الحياة.» أما على الجانب الآخر من الإمبراطورية، أي في إفريقيا ذات الحرارة الملتهبة، فإن الإثيوبيين، والنوميديين، والموريتانيين ضئيلو الحجم «وشعرهم مثل نتف الصوف»، «أصواتهم حادة»، وسيقانهم قوية»، و«تفحمت أجسادهم التي لفحها لهيب حرارة الشمس». ضخّت الشمس الدم إلى رؤوسهم فأصبحوا «سريعي البديهة»، لكن نقص الدم الناجم عن ذلك في أماكن أخرى من أجسادهم، جعلهم يصابون بالرعب بسبب احتمال تعرضهم للإصابة، ولهذا السبب فقد كانوا محاربين تعوزهم الشجاعة.

يقال عن الأفارقة أيضاً إنهم «متقلبون» و «مهووسون بالجنس»؛ أما نساؤهم فيتمتعن بمعدل عالٍ من الخصوبة، وهن لذلك غالباً ما يلدن توائم. أما النساء المصريات فيلدن ثلاثة من التوائم – بسبب شربهن من مياه النيل.

كانت الخصوصيات التشريحية المفترضة للشعوب الأجنبية تشكل مادة دسمة للتندر في المخيلة الرومانية. ففي الهند على سبيل المثال، قيل إن هناك «أشخاصاً ينامون في آذانهم». وكان الرومان في الوقت نفسه يبدون احتراماً واضحاً لأعلى طبقة اجتماعية في الهند وهي طبقة البراهمانيين الذين قيل إنهم «نباتيون، ولا يرتدون أي ملابس صوفية أو جلدية، وفي الواقع فإنهم نادراً ما كانوا يلبسون أي ثياب على الإطلاق، وكانوا قادرين على كبح جماح شهواتهم الجسدية محافظين على عذريتهم حتى سن السابعة والثلاثين (يتزوجون بعدها ما طاب لهم من النساء).

كان الرومان يعتبرون المشرقيين عموماً، والسوريين، وخصوصاً شعوب آسيا الوسطى، جبناء في القتال، يرتدون معاطف نسائية، ويحاربون بأقواس ونبال «لا تليق بالرجال». أفسدت حياة البذخ والجواهر الثمينة والأطعمة الفخمة أولئك المشرقيين فأصبحوا ليني العريكة ومنحطين ومتملقين أذلاء، يبالغون في إظهار خضوعهم لملوكهم. وبالمقابل، كان انطباع الرومان عن الشعوب التي تقيم إلى الغرب من روما، يتلخص في أن هؤلاء يتسمون بالفظاظة، وغير متعلمين لا يهتمون إلا بالحروب، أما شعب سردينيا فهم مجموعة منفرة من قطاع الطرق الأشرار والكاذبون بالفطرة».

أما الأسبان، فكان الرومان معجبين ببراعتهم الاستثنائية في فنون القتال. وكان الأسبان – من وجهة نظر الرومان – حضاريين نسبياً إذا ما قورنوا على سبيل المثال بأقوام أخرى كالأرمينيين أو البارثيين. ولو وضعنا جانباً مسألة أن بلادهم مليئة بالأرانب، فإن لهم سمة خاصة يشتركون جميعاً فيها، وهي «أنهم ينظفون أسنانهم بالبول، وحتى أنهم يستحمون فيه».

من اللافت أن الرومان كانوا ينفرون من الشعوب التي يكون أفرادها عادة من ذوي الأوزان الثقيلة، أو الطول الفارع. فالشماليون عموماً كانوا « من ذوي الأجسام الضخمة والأقرب إلى الحيوانية»، و«أطرافهم هائلة الحجم» بشكل منفر. وكان البريطانيون والكاليدونيون من ذوي «الأحجام المخيفة»؛ أما الألمان فكانوا مثل السلتيين وشعوب بلاد الغال «عرقاً من العمالقة»؛ إلا أن أطوالهم «غير الطبيعية» كانت مترافقة مع دونية في معدل الذكاء لديهم، ولم يكن هناك ما يميزهم سوى أنهم أوقفوا زحف أولئك البرابرة في الحرب.

كان الرجل القادم من الشمال، الضخم الجثة «لا يعرف كيف يستثمر قوته» حتى على أرضه. وكان يتصرف بطريقة أشد سوءاً في الأجواء الحارة حيث «كان يأكل بشراهة، وبسبب إحساسه بالعطش الشديد نتيجة لذلك، كان يشرب كثيراً، خصوصاً الخمرة التي لم يكن من السهل عليه تناولها في موطنه الأصلي؛ ولهذا السبب فقد

كان وزنه يزداد بسرعة. لم يكن باستطاعته تحمل الحرارة أو الغبار، وكان يهرب إلى أي ظل يتقي تحته وهج الحرارة.» أما شعوب بلاد الغال التي تستوطن جبال الألب على وجه الخصوص، فكانت «أحجام أفرادها تفوق حجم الإنسان الطبيعي، وكانوا يحاربون كالوحوش الضارية.» وقد وصف أحد الرومان هؤلاء بالقول: «عند بَدْئهم بالهجوم، يقاتلون كرجال خارقين، ولكن بعد ذلك، يقاتلون كالنساء. إنهم يشبهون إلى حد ما، الثلوج على جبال الألب التي يقطنونها. فعندما يتحول الهجوم الأول إلى معركة حامية الوطيس، يبدأ العرق بالتصبب منهم، وبعد قليل من القتال، يذوبون كالثلج بفعل حرارة الشمس.»

باختصار، كان الرومان يعتبرون أن أحجامهم الجسدية ممتازة؛ وكانوا يرون أن طول جنودهم الذي يقل بمقدار ثلاث، إلى ست بوصات عن طول الجندي القادم من بلاد الغال أو الجندي الألماني هو منة إلهية خصهم بها دون سواهم من الأقوام الأخرى؛ «كان الرومان يتفوقون على الشماليين في معدل الذكاء وعلى الجنوبيين بالقوة الجسدية [١٦].

مع ذلك، وبالرغم من كل هذا التحامل، فقد كان بإمكان الرومان استقطاب كل أولئك «البرابرة» القادمين من كل حدب وصوب لينضووا تحت لواء الإمبراطورية، والإفادة من مواهبهم، كما مهدوا لهم السبل للارتقاء في مواقع الدولة، وتعايشوا على وجه العموم معهم بشكل سلمي. استناداً إلى غيبون، كانت روما في القرن الثاني الميلادي تجسد ذلك «العصر من تاريخ العالم الذي كان فيه الإنسان يعيش أوج سعادته وازدهاره» [١٧] لكن كيف استطاعت روما أن تربط ما بين تلك الشعوب المختلفة، وتحثها جميعاً على العمل في سبيل إعلاء شان الإمبراطورية؟

جاذبية الثقافة والمواطنة الرومانية

ربما كان أكثر ما يثير الاهتمام في الإمبراطورية الرومانية هو الجاذبية التي كانت تشد الناس إليها. فقد كان رعايا هذه الإمبراطورية من بريطانيا إلى المنطقة

العربية يرغبون في أن يكونوا جزءاً منها - أي أن يصبحوا «رومانيين». وقد لاحظ غيبون أن حكام الولايات الرومانيين نادراً ما كانوا «يطلبون الدعم العسكري» وذلك بسبب أن «الأمم المغلوبة التي انصهرت في بوتقة أمة واحدة لم يعد يحدوهم الأمل، أو حتى الرغبة، في أن يعودوا مستقلين من جديد، ونادراً ما كانوا يعتبرون وجودهم منفصلاً عن وجود روما.» ولكن ما هي طبيعة الجاذبية التي كانت روما تتمتع بها؟

كانت روما تمثل أكثر من أي إمبراطورية قديمة أخرى الوطن الأب المشترك لجميع رعاياها المنحدرين من أصول متشعبة. صحيح أن الحضارة الرومانية كانت تعتبر أكثر رقياً من حضارات الأقوام الأخرى (أقله بالنسبة إلى الرومان أنفسهم)، ولكن هذا لم يؤدِ يوماً بالنخب التي كانت تنتمي إلى الأقوام الأخرى التي استعمرتها روما إلى الإحساس بأنها مستعبدة أو ذليلة، بل تم تشجيعها على الإحساس بالتماهي مع الثقافة الرومانية كوسيلة للسلطة والتميز. وكانت الشعوب المستعمرة، غالباً خلال مدة جيلين، تنتقل إلى مرحلة تبدأ فيها ببناء المدن والمدرجات الرومانية، وتبنّي القيم الرومانية وأسلوب الحياة فيها. وكانت النخب المحلية ترسل أبناءها لتحصيل العلم في روما، وهؤلاء كانوا يكبرون ويتحولون شيئاً فشيئاً إلى مواطنين رومان يتمتعون بكافة حقوق المواطنة الرومانية [١٨].

وكان من أكثر ما يثير الدهشة، هو ميل الرومان نحو استيعاب تقاليد ومعارف وممارسات الشعوب الأخرى لو وجدوا فيها ما يفيدهم. «السبب الرئيس الذي جعل الرومان يتسيدون العالم كان يتمثل في أنهم، وبعد أن خاضوا حروباً ضد كل الشعوب، كانوا مستعدين دائماً أن يتخلوا عن ممارساتهم حالما يكتشفون وجود ممارسات أخرى أفضل.» كان هذا الأسلوب واضحاً بشكل خاص في علاقتهم بالإغريق الذين اعترفت لهم النخب الرومانية بتفوقهم عليها. بعد فتحهم لجميع مناطق البحر الأبيض المتوسط، أعلن الرومان أنهم الورثة الثقافيون لبلاد الإغريق القديمة. وهكذا، فبدلاً من إيقاظ الروح الوطنية الرومانية، أو بعث الأفكار المتعلقة بالتميز الروماني، كان أباطرة رومان مثل هادريان يتحدثون عن انتماء لحضارة رومانية - إغريقية.

تركزت الإمبراطورية الرومانية حول مفهوم المدينة أو الدولة تماماً كما كان الأمر في الحضارة الإغريقية التي استنسختها روما. فحيثما توسعت الإمبراطورية، كان الرومان يبنون مدناً جديدة، وكانت العديد من تلك المدن تحمل أسماء رومانية، وذات طابع معماري روماني. ومع أن الثقافة الرومانية استقت جل أفكارها من الأدب، والرسم، وفن النحت، والفن المعماري الإغريقي، فقد كونت بعض الملامح الخاصة بها مثل عروض المجالدين وصيد الحيوانات البرية. كانت الحضارة الرومانية تشكل مزيجاً ثقافياً - حيث كانت تمزج ليس فقط بين ما هو روماني وما هو إغريقي، بل بين عناصرها وبين العناصر المحلية والإقليمية أيضاً - أثبت جاذبيته الشديدة بالنسبة للنخب الموجودة على امتداد مساحة الإمبراطورية.

كان جميع الرومان المتعلمين يجيدون الإغريقية واللاتينية، وكانوا في مرحلة بلوغهم يقرؤون كتابات الفلاسفة الإغريق والرومان، الأبيقوريين الحسيين منهم والزّهّاد. وكان من نتائج هذه الثقافة المشتركة، خصوصاً مع حلول القرن الثاني الميلادي، أن الطبقات الاجتماعية العليا في إفريقيا وإيطاليا وأسبانيا اكتشفت أن بينها قواسم مشتركة أكثر بكثير مما يجمعها مع طبقتي العبيد والفلاحين من بني جلدتها، والذين كانوا ينتجون لها الغذاء ويرعون مواشيها. مع مرور الوقت، لم تعد الإمبراطورية تصنف على أسس عنصرية؛ إذ تم إبدال الفوارق العنصرية والثقافية بفوارق اجتماعية واقتصادية [١٩].

ما يثير الانتباه أنه بينما كانت روما تقوم بنشر الثقافة الإغريقية - الرومانية، فإنها لم تحاول البتة إلغاء اللغات والتقاليد المحلية. على العكس من ذلك تماماً، كانت الوقائع على الأرض تبرز تنوعاً لغوياً وثقافياً هائلاً. وبالرغم من أن اللاتينية كانت اللغة الرسمية في جميع أنحاء الإمبراطورية، فقد بقيت اللغات الإغريقية والقبطية والآرامية والسلتية والبربرية تستخدم في مناطقها المحلية. وفي إفريقيا، استمر تداول اللغة البونية إلى عهد سان أوغستين. كما كانت مدن الإمبراطورية الكبرى مثل روما والإسكندرية تعددية الأعراق واللغات مثل نيويورك أو لندن هذه الأيام [٢٠].

كانت الجاذبية التي تمثلها الجنسية الرومانية جزءاً مهمًا من التركيبة الثقافية لروما الإمبراطورية. بادرت روما إلى تقديم غصن الزيتون المتمثل بالجنسية الرومانية كيْ تخفف من مرارة أعدائها الذين هزمتهم، وقد ساعدت هذه الإستراتيجية في الإبقاء على وحدة الإمبراطورية لقرون طويلة، وتوسعها إلى حافة العالم المعروف آنذاك.

كانت الجنسية في جوهرها ترمز إلى أن الشخص المعني بذلك قد أصبح جزءاً من النخبة، وهو ما ضمن له مستوى معيناً من الحماية ضد تعسف المسؤولين الإمبراطوريين في أعلى الهرم، وكذلك ضد الجماهير في أسفله. تغيرت الحقوق الممنوحة للمواطنين بمرور الوقت؛ إلا أن الجنسية الرومانية عموماً كانت تعني ممارسة حق الانتخاب، وحرية التملك، وإبرام العقود، وكانت تشكل حماية ضد التعذيب، كما كانت تشكل حماية خاصة من أحكام الإعدام، والمساواة في التعامل أمام القانون الروماني. لاحظ الخطيب الإغريقي إيليوس أريستيديس «أنك قسمت رجال إمبراطوريتك إلى قسمين، وجعلت كل الأشخاص من طبقة النبلاء ومن ذوي النفوذ، ومن الذين كانت لهم إنجازات لافتة، مواطنين (رومان) ... أما الباقون، فقد حولتَهم إلى رعايا ومحكومين.»

وردت إحدى القصص المعبرة عن الجنسية الرومانية في العهد الجديد. أمر حكام الولايات بجلد القديس بولص في مقدونيا، كما ورد في كتاب القوانين. وبعد أن كشف بولص أنه مواطن روماني، شعر هؤلاء الحكام «بالخوف» وقاموا بإطلاق سراحه، مع تقديم اعتذار رسمي له. بعد ذلك، وفي القدس حينما ألقي القبض عليه مرة أخرى، قال لهم بولص: «هل تستطيعون بحكم القانون جلد رجل يتمتع بحقوق المواطنة الرومانية، وأزيد على ذلك بالقول، وخصوصاً إذا كان بريئاً؟» وبالرغم من أن بولص تم إعدامه في نهاية الأمر من قبل مسؤولين رومان، إلا أن جنسيته الرومانية شفعت له ومنحته «الحق» في أن يعدم بواسطة قطع الرأس (بدلاً من أن يتم تعذيبه وصلبه) [٢١].

كانت عملية تحويل المجتمعات المحلية إلى المواطنة الرومانية قد بدأت بطبقة الأرستقراطيين. كان أصحاب المناصب الحكومية يمنحون في العادة الجنسية الرومانية كتحصيل حاصل بغض النظر عن أصولهم وأعراقهم. نتج عن هذه المنحة التي تمثلت بإعطاء الجنسية "رُومَنَة" تدريجية للنخب المحلية التي بدأت بالتأقلم مع الحكم الروماني، وترى أن مصالحها مرتبطة بالحفاظ على الإمبراطورية. كتب أريستيديس: «لا توجد حاجة لإرسال حامية عسكرية كي تحمي قلاعهم، وذلك لأن الرجال العظام، أصحاب السطوة والنفوذ في كل من تلك المدن سوف يحرسون أرض آبائهم نيابة عنكم.»

لم تكن الجنسية الرومانية محصورة في الطبقات العليا؛ ذلك أن العديد من أفراد الطبقة الدنيا تم دمجهم في خانة المواطنين من خلال خدمتهم بالجيش. كانت التقاليد والديانة الرومانية تقتضي بأن تكون فيالق الجيش الروماني - أي قوة النخبة فيه - من المواطنين الرومان. وعندما كانت أعداد الجنود في تلك الفيالق منخفضة، كان القادة يقبلون تطوع الأجانب في الجيش ومن ثم، يمنحونهم الجنسية الرومانية. ولكن هذا في مجمله كان يحدث في ظروف استثنائية، مثلما كانت الحال عندما أنشأ القيصر فيلقه الشهير المكون من سكان بلاد الغال؛ وحتى في الأوقات العادية أيضاً، خصوصاً في الشرق عندما كانت الأعداد منخفضة، ولم يكن المواطنون متحمسين للانضمام إلى الجيش.

في حالات أخرى، كانت المجموعة السكانية برمتها تمنح امتياز لقب «المستعمرة الرومانية» - وهو لقب له فوائده المادية العديدة. عندما كان يحدث مثل هذا، فإن جميع الذكور الأحرار في هذه المجموعة السكانية يصبحون مواطنين رومان. وازدادت بثبات مع مرور الوقت، أعداد المواطنين الرومان على امتداد الإمبراطورية؛ ووصلت هذه الأعداد إلى حدودها القصوى مع قيام الإمبراطور كركلا بمنح حق الاقتراع لأعداد كبيرة سنة ٢١٢ ميلادية، مانحاً بذلك الجنسية لكل ذكر حر في الإمبراطورية.

كانت المقاربة التي اتبعتها روما، وتجاوزت فيها مسألتي العرق، والطبقة الاجتماعية عاملاً مساعداً في نشر الثقافة والقيم الرومانية. كان المواطنون الرومان في طول البلاد وعرضها يتوقون إلى الظهور في المناسبات العامة بأرديتهم الرومانية البيضاء الفضفاضة، وإتباع العرف الروماني بإطلاق الاسم المكون من ثلاثة أجزاء على أنفسهم إشارة منهم إلى الوضع النخبوي الذي يتمتعون به [٢٢].

"أن ترى كافة سكان العالم يرتدون التوغا..."

لم يكن هدف روما المثالي الذي تسعى إليه من خلال عملية الدمج بين الشعوب المختلفة إبراز شمولية التعدد الثقافي بمقدار ما كان عملية استيعاب لتلك الشعوب. كانت روما متسامحة بمعنى أن أي مجموعة ترغب في تبني العادات والتقاليد الرومانية، كان من الممكن ضمها إلى الإمبراطورية بغض النظر عن أصولها العرقية. لكن لم يبد الرومان أي رغبة في المحافظة على ممارسات اعتبروها «بربرية»، أو إبداء أي احترام أو تقدير لهذه الممارسات.

كانوا على سبيل المثال يشعرون بالاشمئزاز من منظر السلتيين الأيرلنديين بشعرهم الأشعث الطويل وسراويلهم الضيقة بدلاً من أردية التوغا. كما كانوا ينتقدون البريطانيين الذين كانت تتوافر لديهم كميات كبيرة من الحليب؛ إلا أنهم لم يستغلوه – لسوء الحظ – لتصنيع مادة الجبن. وكانوا يعبرون عن ازدرائهم للوسيتانيين فيما يعرف اليوم بالبرتغال بدعوى أنهم كانوا يفترشون الأرض، ويصنعون الخبز من دقيق الذرة، ولأنهم كانوا يفضلون شرب الماء على شرب الخمر، ويطبخون بالسمن بدلاً من زيت الزيتون.

إلا أن تلك العادات الفظة كان بالإمكان معالجتها والتخلص منها. كان احتقار الرومان للرعايا البربريين يتلاشى حالما تبنى هؤلاء نمط روما في الحياة. لم يكن يُعتقد أن البرابرة سوف يبقون أبد الدهر خارج نطاق الحضارة؛ كل ما كان عليهم القيام به هو اتباع نمط الحياة الرومانية كي يتم اعتبارهم جزءاً من الإمبراطورية.

وهكذا، وفي سنة ٤٨ ميلادية، فإن الإمبراطور كلوديوس أجاب في معرض رده على معارضيه الذين جادلوا أن الغاليّين البرابرة هم من البدائية بحيث لا يمكن السماح لأي منهم نيل شرف عضوية مجلس الشيوخ، ذلك الجواب الشهير الذي قال فيه: «لا بأس بهم، فهم لم يعودوا يرتدون السراويل» [٢٣].

كان رأي كلوديوس واضحاً: يمكن وضع حد للبربرية؛ وكلما وضع حد لها بصورة أسرع، كان ذلك أفضل. وقد آمن الرومان بشدة بحضارية مهمتهم، تماماً كالبريطانيين الذين أتوا بعدهم بحوالي ألفي سنة. كان الهدف، كما وصفه بلايني الأكبر، هو «جعل سلوك الناس أكثر رقياً، أي تجميع هذا الخضم المتلاطم والهائل من أقوام لا حصر ولا عد للاختلافات فيما بينها، للتحدث بلسان واحد ولغة واحدة، ولتزويد الإنسانية والناس بالحضارة بحيث تنتمي جميع الأعراق إلى أب واحد.» وهكذا فقد كان كلوديوس يأمل في «أن يرى كافة سكان العالم يرتدون التوغا – من إغريق وغاليين وأسبان وبريطانيين، إلى ما هنالك.»

يصف المؤرخ تاسيتوس بطريقة مشابهة كيف حاول أغريكولا، والد زوجته وحاكم بريطانيا أن يقنع البريطانيين بارتداء التوغا، وذلك من خلال تشجيع رعاياه البريطانيين على تشييد منازل ومعابد على الطراز الروماني، وكذلك من خلال تعليم أبناء القياديين من البريطانيين الفنون الجميلة. وبحسب رواية تاسيتوس، فإن البريطانيين الذين كانوا يستوطنون بدايةً في «مستعمرات بدائية» والذين كانت لديهم نزعة « نحو شن الحروب» بدؤوا «يعتادون في نهاية المطاف على حياة السلام والاستقرار بعد صدور سلسلة قرارات العفو الإمبراطورية.» وقال أيضاً: «حتى أزياءنا أضحت المفضلة بينهم وكان لباس التوغا يظهر في كل مكان.» وبمرور الوقت، تم إغواء البريطانيين «بواسطة إغراءات الطرق الشريرة، وصفوف الأعمدة، والحمامات الدافئة، والولائم الباذخة. ووصف البريطانيون الذين لم تكن لديهم خبرة في أي مما تقدم ذكره، هذه الأشياء "بالحضارة" والإنسانية، بالرغم من أنها كانت جزءاً من عملية استعبادهم» [٢٤].

بعبارة أخرى، لم يكن الرومان نسبيين ثقافياً. فقد شجع المسؤولون الرومان النخب المستعمَرة لقبول الصيغة الثقافية الرومانية من خلال إيجاد نظام سياسي واقتصادي كان بمثابة مكافأة لمن ينخرط في سياسة الاستيعاب تلك. ما كان لافتاً هو أن الجنسية أو العرق لم يكن لهما أي تأثير يذكر على قدرة أي شخص في أن يصبح رومانياً. وكان السر في عظمة روما يكمن في رغبتها وقدرتها على دمج واستيعاب كمّ لا حصر له ولا عدّ من الشعوب الجديدة في إمبراطوريتها.

التسامح الديني في أوج قوة الإمبراطورية

أحد أهم الملامح اللافتة للنظر في العصر الذي كانت روما في أوج قوتها تتسم به كان مقاربتها العالمية للدين. وبحسب الملاحظة اللاذعة التي أبداها غيبون، «فإن كافة الأنماط المختلفة للعبادة التي انتشرت في كافة أنحاء العالم الروماني، كانت جميعها بالنسبة للناس صحيحة بشكل متساوٍ؛ أما بالنسبة للفيلسوف، فقد كانت كلها على السوية نفسها من الزيف، واعتبرها الحاكم مفيدة بالدرجة نفسها. وهكذا فقد وفر التسامح الديني ليس فقط تساهلاً متبادلاً بين أتباع الديانات المختلفة، بل أيضاً انسجامًا دينيًا.» [٢٥] المطلب الوحيد الذي فرضته روما على الديانات المحلية كان يتمثل في إظهار قدر كاف من الاحترام للسلطة الرومانية والطقوس الرسمية.

لم يكن التسامح الديني الذي أظهرته روما مدعاة للاستغراب إذا تم النظر إليه من زاوية معينة، كان الرومان يؤمنون بديانة تعددية الآلهة، وكانوا يرون أن من الطبيعي أن تعبد الشعوب المختلفة آلهة مختلفة. وفوق هذا وذاك، كان النظام الروماني الذي يقول بوجود آلهة متعددة، يستند كلياً وجزئياً إلى الأسطورة الإغريقية – التي تتمحور حول الآلهة زيوس وأثينا وأفروديتي، والتي أعيدت تسميتها بجوبيتر ومينريفا وفينوس. كانت الرؤية الإغريقية – الرومانية تؤمن بوجود آلهة لكل شيء. وإذاً، فما الضير في أن تؤمن الشعوب الأخرى بآلهة جديدة؟

مع حلول القرن الثاني الميلادي، كان من المستحيل من الناحية الفعلية أن تفرد

ديناً رومانياً «نقياً». وفي الوقت الذي كانت الفيالق الرومانية تعبر أوروبا وشمال إفريقيا، فإنها كانت «تستولي» على آلهة جديدة، تقريباً كما كانت تستولي على مدن وثقافات جديدة. بعد انتهاء المعارك، كان الجنرالات الرومان في غالب الأحيان، يتبنون آلهة أعدائهم المهزومين، وكانوا بذلك يبسطون سيطرتهم على مصادر القوة عند أعدائهم. بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك؛ إذ كان قادة تلك الفيالق يقومون، وبحركة أبعد ما تكون عن إظهار أي احتقار لتلك الآلهة المحلية، بنقلها إلى روما في طريق عودتهم، وغالباً ما كانوا يجدون لها مكاناً في معابدهم المحلية.

كانت روما، بالإضافة إلى قيامها «بالاستيلاء» على الآلهة الأجنبية، تقوم «باستدعاء» أحد الآلهة الأجنبية المحترمة للمجيء إلى روما لمساعدة المدينة في مواجهة حال طارئة أو محنة طبيعية مثل انتشار وباء ما، أو مواجهة غزو. ولو حدث وعم الجفاف، فإن ذلك يعني أن الآلهة الرومانية كانت إما غاضبة أو مشغولة بقضايا أخرى. وكان الرد على ذلك يتمثل في البحث عن آلهة جديدة لحل المشكلة.

كانت الديانة الرومانية تتعايش في أغلب الأحيان مع المعتقدات المحلية للسكان الأصليين في المناطق الجديدة المنضوية تحت لواء الإمبراطورية. كان ذلك يتخذ شكل الاعتراف الديني المبطن. ففي موريتانيا على سبيل المثال، كان يشاع أن إحدى الأسواق كانت تتمتع بحماية كل من الإله جوبيتر (وهو إله في الهيكل الروماني)، وجوبا (وهو ملك محلي مؤله) والموهوبة فينيسنيسي (وهي روح محلية حامية). في أماكن أخرى، كان يتم دمج الآلهة؛ فقد كان كل من الإلهين زحل وجوبيتر يعاملان بالمساواة نفسها تقريباً في شمال إفريقيا، وكان الإله السلتي لوغ موازياً للإله ميركوري، أما الإلهة مينريفا فقد ارتبط اسمها بآلهات محليات مثل سوليس إلهة مدينة باث [٢٦].

لكن التعامل الاستيعابي الذي مارسته روما تجاه الأديان، كانت له حدوده أيضاً. فالمعتقدات والعادات التي اعتُبِرت «غير رومانية»، أو منفرة أخلاقياً، كانت ممنوعة. وهكذا فقد فرض مجلس الشيوخ الروماني حظراً على الطقوس الدينية "الدرودية"

المتمثلة بتقديم أضاحي بشرية، كما فرض حظراً على الطقس الديني المتمثل في ممارسة الإخصاء الذاتي والذي كان يقوم به بعض أتباع الآلهة الفريجية سيبيل. وقد وقعت بعض الآلهة ضحايا للسياسة. فالإلهة آيسيس والإله سيرابيس - اللذان كانا يرمزان في الوعي الشعبي وعلى نطاق واسع، إلى كل من أنطونيو وكليوباترا- تم وضع الحظر على التعبد بهما من قبل الإمبراطور أغسطس بعد انتصاره في مصر. ولم يتم السماح بضم الإلهين آيسيس و سيرابيس إلى الهيكل الروماني إلا بعد مرور قرنين من الزمن، حين أمر الإمبراطور كركلا بإعادة الاعتبار إليهما[٢٧].

عموماً، نجح الرومان بشكل باهر في دمج الآلهة المحلية بالنظام الديني للإمبراطورية. إلا أن الديانتين التوحيديتين، وهما اليهودية والمسيحية - اللتان كانتا ترفضان الانخراط في الطقوس الرومانية الإلحادية - شكلتا تحديات أكثر جدية للإمبراطورية.

عاش اليهود القدامى في أرض فلسطين، وفي المدن الساحلية في مصر وشرقي البحر الأبيض المتوسط بما في ذلك الإسكندرية التي كانت موئلاً لأكبر تجمع لليهود الناطقين باللغة الإغريقية. شكل اليهود معضلة حقيقية بالنسبة للرومان. ففي «البوتقة الرومانية السعيدة التي تنصهر فيها الأعراق والأجناس»، الموجودة في كبريات المدن، كان اليهود يبنون تجمعاتهم السكنية المنفصلة والخاصة بهم وكانت هذه التجمعات تتركز حول كنسهم ومحاكمهم التي قاومت كل الإغراءات بشأن إبدال العبرية بالإغريقية أو اللاتينية. وبالرغم من وجود أعداد كبيرة من اليهود «الهلنستيين» الذين يتحدثون اللغة الإغريقية، إلا أنهم كانوا ميالين إلى العيش بشكل منفصل وهو ما أدى بالرومان لأن يطلقوا عليهم وصف «برابرة الداخل».

انتعش اليهود الأوائل اقتصادياً في الإمبراطورية، وكانوا يتمتعون بكل ما تقتضيه سياسة التسامح الديني التي انتهجتها روما مع كل الأقوام التي استعمرتها. لجأ اليهود إلى الرومان حوالي سنة ١٦١ قبل الميلاد على إثر الهجوم الكاسح الذي

شنه عليهم الملك السوري أنتيوخوس الرابع. عقدت روما معاهدة صداقة مع اليهود لرغبتها الشديدة في إضعاف سورية، وتوطدت هذه الصداقة مع مرور الأيام. منح يوليوس قيصر اليهود حق حرية العبادة، وشكلاً من أشكال الاستقلال الذاتي في كافة أنحاء الإمبراطورية. وفي المقابل، قدم اليهود لقيصر الدعم العسكري؛ وبعد اغتيال القيصر، زحف اليهود الرومان زرافات ووحداناً الليلة تلو الليلة بثياب الحداد يندبون موته.

عامل أغسطس، خليفة القيصر اليهود بشكل إيجابي حتى أنه أمر بإجراء استثنائي يتعلق بالتأكد من أن موسم حصاد القمح الذي تشرف عليه الحكومة الرومانية لم يخلّ بقدسية السبت اليهودي. وكتب الفيلسوف اليهودي فيلو الذي كان يقيم في الإسكندرية، بكثير من الإعجاب عن تسامح أغسطس ما يلي:

> كان أغسطس يعرف أن غالبية مساحة مدينة روما في الجانب الآخر من نهر تايبر يسكنها اليهود. العديد منهم كانوا محررين وأصبحوا الآن مواطنين رومان. ... لم يطردهم من روما أو يجردهم من جنسيتهم وذلك لأنهم عانوا كثيراً من أجل المحافظة على هويتهم كيهود. لم يفرض عليهم إهمال أو ترك أماكن العبادة العائدة لهم، أو يمنعهم من التجمع، أو تلقي دروس حول القوانين اليهودية.... احترم مصالحنا بكثير من الورع والتقوى، لدرجة أنه، وبدعم من عائلته، قام بزخرفة معبدنا بدافع من روعة تفانيه وإخلاصه، كما أمر بتقديم نذور وقرابين يومياً وعلى حسابه الخاص تقرباً من الإله الأعظم.

لكن أباطرة آخرين كانوا أقل اهتمامًا باليهود من أغسطس. فقد منع هادريان عمليات الختان، وتدريس القوانين اليهودية. أما الإمبراطور كاليجولا فقد أرغم يهود الإسكندرية على تناول لحم الخنزير. أسهمت هذه الاستفزازات، بالإضافة إلى الصراع الدائر والمستمر حول السيطرة على القدس، في انفجار ثورات ثلاث كبرى، اندلعت الأولى منها بين سنتي ٦٦ و٧٣ ميلادية بعد أن قام الإمبراطور تايتوس بتدمير المعبد اليهودي في القدس. أما الثورتان الثانية والثالثة فقد اندلعتا سنتي ١١٥ و١٣١ على التوالي عندما ثار اليهود على القوانين القمعية، وعندما تدفقت

أعداد كبيرة من الإغريق والمستوطنين الآخرين إلى المناطق اليهودية. أدت هذه الثورات إلى سفك الكثير من الدماء في الجانبين اليهودي والروماني.

قال بعض المؤرخين إن الصراع بين الرومان واليهود كان ذا طبيعة سياسية بالدرجة الأولى. لكن آخرين ركزوا على العوامل الدينية والثقافية لهذا الصراع. على أي حال، خضعت أوضاع اليهود إلى الكثير من التغيرات مع مرور الوقت، وكان هذا التغير يخضع غالباً إلى طبيعة الإمبراطور في موقع السلطة [٢٨].

أما المسيحية فقد مثّلت مجموعة مختلفة من التحديات للتسامح الروماني. فقد رفض المسيحيون الآلهة الرومانية، كما رفضوا قسم يمين الولاء للإمبراطور. كان اليهود معفيين من هذه المتطلبات بسبب أن صفة «المعتقد القديم» سبق وأن أطلقت عليهم عندما غزتهم الفيالق الرومانية واستعمرتهم. لم تتمتع المسيحية بهذا الامتياز كونها «معتقداً جديداً» يتزايد عدد معتنقيه باطراد في كافة أنحاء الإمبراطورية، ومن ثم لم يكن لها الحق بخرق شروط الصفقة الضمنية التي تقضي بأن يتسامح الرومان مع أديان أخرى، إلا إذا أبدى هؤلاء علناً، قلة احترام للسلطة الرومانية.

نتيجة لذلك، وقعت اصطدامات متفرقة بين المسيحيين الأوائل والمسؤولين الرومان. واجه المسيحيون كذلك أعمالاً عدائية من قبل اليهود الذين اعتبروهم هراطقة انحرفوا عن خطهم الديني. مع ذلك، تُرِك المسيحيون وشأنهم إلى حد كبير عملياً طيلة العهد الذهبي للإمبراطورية. كتب غيبون في هذا الصدد ما يلي: «سمحت اللا مبالاة التي أظهرها بعض الأمراء، والاهتمام الذي أبداه البعض الآخر، للمسيحيين بالتمتع بمزايا التسامح بشأن ممارسة شعائرهم الدينية، والذي وإن لم يكن قانونياً، فإنه كان فعلياً وعلنياً» [٢٩].

التعصب، والمسيحية، وسقوط روما

متى بدأت الإمبراطورية الرومانية بالانحدار؟ يختلف المؤرخون بشدة حول

هذا الموضوع، ويعتمد ذلك على نوع النظرية المعتمدة التي يتبنونها لتفسير أسباب هذا السقوط - هناك نظريات كثيرة حول هذا الموضوع. تمت الإشارة إلى جملة من العوامل التي أدت جميعها من دون شك دوراً في سقوط الإمبراطورية؛ ومن بين هذه العوامل التمدد الإمبراطوري الزائد عن الحد، والأزمة الاقتصادية، والغزوات البربرية، وضعف قوة روما العسكرية. تضاف إلى ذلك مجموعة من التفسيرات ذات الخاصية المحددة، من بينها التسمم بالرصاص، والفساد الأخلاقي، وإنهاك التربة، وفساد النساك والرهبان والراهبات و«منشقين آخرين»، وذوبان الأصالة الرومانية «النقية» [٣٠]. لكن، وبالرغم من أن تقويم الأسباب الكلية لسقوط روما لا يدخل ضمن مجال هذا الفصل؛ إلا أن هناك نقطتين واضحتين تمثلان أطروحة هذا الكتاب.

تتمثل النقطة الأولى في أنه، بينما يعتبر التسامح عاملاً أساسياً في صعود نجم الإمبراطورية الرومانية بوصفها قوة عالمية، ومحافظتها على الإيقونة الرومانية، فقد كان يحمل في طياته أيضاً بذور الانهيار النهائي لروما. كانت الإمبراطورية الرومانية كما رأينا سابقاً، أكثر نجاحاً من بلاد فارس الأخمينية في عملية الدمج بين الشعوب المستعمرة ذات الخلفيات المتشعبة، واستمالتها من خلال إعطائها الجنسية، بالإضافة إلى الجاذبية الخاصة التي تتمتع بها الثقافة الرومانية. وفي حين أن أغلب الشعوب التي كانت تحت الحكم الأخميندي لم تتم «فوْرستها»، كانت هناك أعداد مدهشة من رعايا الإمبراطورية الرومانية قد تمت «روْمنتها».

ولكن لم تتم "روْمنة" جميع الرعايا. سعت الإمبراطورية الرومانية إلى استيعاب شعوب كانت تقاليدها وثقافاتها المختلفة، لسبب أو لآخر، متناقضة مع تقاليد روما وثقافتها، وكانت من ثم، أكثر مقاومة لهذه العملية؛ خصوصاً في الشرق الهيلنيستي، والشمال «البربري». كان الأباطرة العظام الأوائل متسامحين مع هذه التباينات بين الشعوب، ولم يكن هناك أدنى شك في أن الإمبراطورية الرومانية أفادت كثيراً من هذا التسامح خلال أوج سلطة روما. إلا أن شعوب الشرق والشمال، وبفعل هذا

التسامح، بقيت متماسكة اجتماعياً، ومستقلة ذاتياً نسبياً، وغير رومانية إلى حد ما؛ ومع مرور الزمن، تمردت تلك الشعوب على الحكم الإمبراطوري وبدأت بإثارة القلاقل سعياً نحو الاستقلال.

يشرح المؤرخ أنطوني باغدين الوضع كما يلي: «في الوقت الذي توسعت الإمبراطورية، وازدادت أعداد الشعوب المنضوية تحت سيطرتها، أضحى من الصعوبة بمكان،الإمساك بزمام هذه التباينات بين الشعوب». تعمق الانقسام في القرن الرابع الميلادي بين الغرب اللاتيني والشرق الإغريقي؛ ومع حلول سنة ٣٩٥، انشطرت الإمبراطورية الرومانية بشكل نهائي إلى شطرين. في الوقت نفسه، «بدأت الإمبراطورية بالتجوف من الداخل بشكل لا براء منه، في حين بدأت الشعوب التي كانت منصهرة منذ مدة طويلة في الجسم الإمبراطوري بثورة ضد الإمبراطورية، واستغلت الشعوب التي كانت موالية يوماً ما، لروما الفرصة لإنشاء دولها المستقلة الخاصة بها» [٣١].

لكن «التنوع العرقي الزائد عن الحد» لم يكن سوى مظهر واحد من مظاهر المشكلة. أما المشكلة القاتلة التي عانت منها روما بعد أفول عصرها الذهبي، فتمثلت في انحدارها نحو عصر تميز بممارسة الاضطهاد الديني والكراهية العرقية. وهنا تكمن نقطتي الثانية: فبالرغم من أن التعصب لم يكن العامل الوحيد في انحطاط الإمبراطورية الرومانية، إلا أنه ساعد في تفتيت تلك الإمبراطورية.

كانت الديانة المسيحية متورطة بعمق في هذا الجو المتعصب؛ حيث كانت في البداية تمثل هدفاً لهذا التعصب، وبعد ذلك، أصبحت مصدره الرئيس. انتشرت المسيحية مع حلول القرن الثالث الميلادي في كافة أنحاء الإمبراطورية، وكانت تمثل بحلول سنة ٣٠٠ ميلادية عشر العدد الإجمالي من سكان الإمبراطورية تقريباً. لم يكن لأتباع الديانة المسيحية الأوائل شعبية كبيرة بين رعايا الإمبراطورية؛ إذ لم يكتفوا بإنكار وجود الآلهة الرومانية، بل اتهموا بممارسة سفاح القربى وبأكل لحوم البشر. كان القربان المقدس ينظر إليه باعتباره استهلاكاً للأجساد البشرية والدم.

غالباً ما كان يتم تحميل أتباع الديانة المسيحية مسؤولية الهزائم العسكرية والكوارث الطبيعية كالأوبئة والزلازل والمجاعات بسبب رفضهم المشاركة في الطقوس الرسمية المتمثلة في تقديم أضاحي للآلهة [٣٢].

شن الإمبراطور ديوكليتيان سنة ٣٠٣ حملة أطلق عليها وصف "الحملة العظيمة ضد المسيحية". كانت الأيقونة الرومانية حينها تتهاوى بسبب الغزوات التي شنتها القبائل الألمانية من الشمال، في حين كان الفرس يهاجمون الإمبراطورية من الشرق. قرر ديوكليتيان في معرض سعيه لاستعادة وهج العصر الذهبي للإمبراطورية الرومانية – وكان من المفارقة أن أسلوبه للقيام بذلك كان مناقضاً للقيم التي سادت في عصر روما الذهبي – محو المسيحيين «المعادين للرومان» من الوجود. تعرض المسيحيون خلال تلك المدة، وعلى امتداد عشر سنوات تقريباً إلى حملات من التنكيل المنظم. طرد المسؤولون الرومان المسيحيين من المناصب الحكومية، وقاموا بتطهير الجيش منهم. في سنة ٣٠٤، صدر مرسوم إمبراطوري يقضي باعتقال أي مسيحي لا يقدم أضاحي لآلهة روما. دمرت الكنائس، وأحرقت المخطوطات، وقتل الآلاف من المسيحيين.

كان من المدهش ملاحظة أن المعركة التي جرت بين روما العظيمة والكنيسة المسيحية العزلاء، حسمت لصالح تلك الأخيرة. فبعد انتهاء معركة الخلافة القصيرة والدموية في آن، حسم الأمر لصالح قسطنطين الأكبر الذي تم تعيينه إمبراطوراً، ولأسباب ما تزال غامضة حتى يومنا هذا، أعلن اعتناقه للديانة المسيحية سنة ٣١٢ ميلادية. توقفت أعمال الملاحقة والاضطهاد لملايين من أتباع الديانة المسيحية فجأة بعد اعتناقه المسيحية، أما بالنسبة لبقية سكان الإمبراطورية، فقد بدأ عصر جديد من الاضطهاد.

كان الدور الذي قامت به المسيحية في انهيار الإمبراطورية الرومانية مثار جدل على مدى قرون عديدة. اعتقد غيبون أن المسيحية كانت أحد العوامل الرئيسة في انهيار الإمبراطورية – وربما كانت العامل الرئيس [٣٣]. بالرغم من أن الإمبراطورية

تأثرت بجملة من العوامل، إلا أن تأكيد المسيحية على «وجود حياة أخرى»، وعلى مبدأ «الطاعة العمياء»، و «الخنوع المستند إلى الجبن» أدى إلى إفساد قاتل للفضائل الرومانية الدنيوية ذات الصفات الرجولية والمادية التقليدية، بحسب رأي غيبون. لكن النقطة التي أود التركيز عليها، مختلفة. لقد أدى اعتناق روما للمسيحية بشكل رسمي إلى ظهور جملة من مظاهر التعصب الخبيثة في سياسة الإمبراطورية، وهي مظاهر أسهمت بشكل كبير في التقليل من شأن سياسات الانصهار والدمج الناجحة، التي انضوت تحت لوائها شعوب الإمبراطورية بكل تشعباتها العرقية.

كانت الوثنية في بداية الأمر منتشرة إلى درجة يصعب معها وضع حد لها بمنتهى البساطة. ما قام به قسطنطين في واقع الأمر، كان تجريد المعابد الرومانية من كنوزها، وفي الوقت نفسه، تشييد كاتدرائيات فاخرة على الطراز المعماري الروماني مستطيلة الشكل ونصف دائرية في أحد طرفيها. ولكن في الوقت الذي تحولت الإمبراطورية شيئاً فشيئاً باتجاه المسيحية، ازدادت مظاهر التعصب حدة. تعرض أتباع بعض المعتقدات الدينية مثل الرواقية والمانوية (وهي ديانة قديمة ذات منشأ فارسي)، بالإضافة إلى اليهودية إلى اضطهاد وحشي. ومع حلول القرن الرابع، شنت روما حملة منظمة بقصد استئصال الوثنية من الإمبراطورية – وكذلك جميع المتمردين بمن فيهم «الهراطقة» من المسيحيين الذين انحرفوا عن الخط العام للمسيحية. أصبح لأوروبا، وللمرة الأولى، كنيسة موحدة: «لقد ظهر إلى حيز الوجود المجتمع المسيحي المنغلق في العصور الوسطى.»

ما من شك في أن قسطنطين وخلفاءه كانوا يؤمنون بأن الوحدة الدينية سوف تعيد بناء الإمبراطورية وتشد من عضدها في مواجهة الهجمات البربرية. إلا أن ما حدث كان العكس من ذلك تماماً؛ فلقد أثبت الهجوم الذي شنه الرومان على الوثنيين والهراطقة أنه كان تدميراً للذات بشكل كبير، لا بل إنه سهل على البرابرة القيام بهجماتهم على الإمبراطورية. ففي شمال إفريقيا على سبيل المثال، أسفر إغلاق المعابد الوثنية عن استفزاز مشاعر أتباعها، وحفزهم على القيام بمظاهرات

مريرة؛ كما أدى الاضطهاد الذي تعرض له من وصفوا بالهراطقة إلى تجييش الدعم الشعبي للملك الواندالي جينسيريك – الذي كان هو نفسه من هؤلاء المسيحيين الهراطقة – ومساعدته على تبوء السلطة بصفته محررًا لهؤلاء القوم. إضافة إلى ما تقدم، أدت المذابح التي عمت مناطق أخرى إلى هجرة جماعية لليهود الذين أعادوا تموضعهم في أجزاء من أراضي بلاد فارس، وأسهموا في تخريب التجارة الإمبراطورية، وتحالفوا مع أعداء روما. أشار مونتيسكيو فيما بعد إلى أنه «وبينما كان الرومان القدامى يعززون تحصين إمبراطوريتهم من خلال التسامح مع كل أصحاب المعتقدات الدينية، فإن خلفاءهم أسهموا في تلاشي هذه الإمبراطورية وذلك من خلال قيامهم بالقضاء على كل المعتقدات الدينية، الواحد بعد الآخر، ما عدا المعتقد الديني الرسمي السائد»[٣٤].

الأسوأ من ذلك، فقد اكتسح روما وباءُ الصراع العرقي المتعاظم الذي بدأ مع نهاية القرن الرابع الميلادي. كان مئات الآلاف من «البرابرة»، ومعظمهم من الألمان، قد هاجروا في تلك الحقبة إلى الأراضي الرومانية. وكان من بين هؤلاء الألمان – الذين كان أغلبهم من اللاجئين الذين فروا من بطش الهونيين المغول – قوطيون وونداليون، وبورونديون، ولومبارديون هاجروا من الشمال الشرقي، وفرانكيون وألامانيون، وسكسونيون، وفريزيون هاجروا من الشمال الغربي.

احتل الألمان موقعاً غير مستقر في جسم الإمبراطورية الرومانية. فمن ناحية، كانوا بمثابة أعداء محتملين مخيفين – كانوا غزاة شقوا طريقهم عبر نهر الدانوب محطمين في طريقهم الدفاعات الأمامية الرومانية المتداعية. ومن ناحية أخرى، كانوا يمثلون حلفاء ضمنيين يقدمون دعماً بشرياً للجيش الروماني الذي كانت أعداد أفراده تتناقص بشكل مخيف، ومن ثم، فقد أضحى بأمس الحاجة إلى مثل هذا الدعم.

لاقت سياسة التسامح وسياسة الاندماج الاختيارية اللتان اعتمدتهما روما في

obeikandi.com

البداية، نجاحاً في أوساط القبائل الألمانية المختلفة. فقد سُمح لهؤلاء أن يعيشوا في ظل حكامهم، وأن يمارسوا عاداتهم ويتبعوا قوانينهم الخاصة بهم. وكان رجالهم منخرطين في مختلف مراتب جيش الإمبراطورية الرومانية. كما كان أبناء جنرالاتهم يتلقون التعليم الكلاسيكي، وتوفر لهم فرص ارتقاء السلم الوظيفي، وفي بعض الحالات، الوصول إلى أعلى المراتب القيادية في الجيش الروماني. تم تقديم أراضٍ مناسبة لهم، واعتنقوا الديانة المسيحية بأعداد كبيرة. وكان القادة الألمان الذين لم تكن لديهم أي نية في نهب روما أو تدميرها (كما فعلوا ذلك في نهاية المطاف)، يؤمنون بوجوب الإسهام في عظمة روما، كما كانوا يؤمنون بأنهم جزء لا يتجزأ من الإمبراطورية الرومانية. تحدث القائد الفيسكوثي أتولف في هذا الصدد عن ضرورة «استعادة سمعة روما بجميع مظاهر كرامتها، وتعزيزها بمساعدة من القوة القوطية» [٢٥].

لكن اندماج المهاجرين الجرمانيين في جسم الإمبراطورية الرومانية لم يقيض له أن يكتمل أبداً. فقد عانى الألمان منذ البداية من بعض مظاهر الاحتقار، وتعرضوا بين الحين والآخر إلى المهانة التي كان يكيلها لهم الرومان. كان أبناؤهم يؤخذون أحياناً كرهائن كي يضمن الرومان ولاءهم. وكانت زوجاتهم وبناتهم يتعرضن للسبي، ويتم استعبادهن. في الوقت نفسه، كان الألمان الذين عانوا من المجاعات – فبالرغم من أن روما قدمت لهم الأراضي، إلا أنهم كانوا بالأساس لا يفقهون شيئاً عن الزراعة – يقومون بأعمال السلب والنهب ضد جيرانهم الرومان الذين كانوا يتمتعون بحياة مزدهرة نسبياً. اندلعت الثورات بينما كانت بعض القبائل الجرمانية تحاول الحصول على قدر أكبر من الحكم الذاتي. وهكذا، فقد انعدمت الثقة بين الجانبين وازدادت بينهما الأعمال العدائية.

وصلت تقاليد التسامح الروماني الشهيرة إلى مداها الأقصى الذي لم يكن بإمكانها تجاوزه. أثار الألمان قرف الرومان الأصليين الذين اشتكوا من أن الألمان «تنبعث منهم روائح تثير الغثيان»، وأنهم – أي الألمان – يطلون شعر رؤوسهم الذهبي

اللون بالسمن ذو الرائحة الزنخة المثيرة للقرف. حتى المثقفون الرومان الذي نادوا بضرورة التعايش مع «البرابرة النبلاء» وصفوا «الألمانيين بالسكيرين، ووصفوا السكسونيين والفرانكيين والهيروليين بأنهم متوحشون، كما وصفوا الآلانيين بأنهم فاسقون وجشعون.»

تبنت روما في نهاية القرن الرابع الميلادي، وللمرة الأولى في تاريخها، نظام الفصل العنصري الذي طبقته على أحد الشعوب الواقعة تحت سيطرتها، حيث منعت الرومان من التزاوج مع أفراد من الشعوب الأخرى، كما منعت الرومان من ارتداء السراويل، وجميع الألبسة الأخرى التي كان البرابرة الوثنيون يرتدونها (والمخالفة لزي التوغا أو التنك، وهي السترة القصيرة التي يرتديها الجنود الرومان)؛ اعتبر الرومان المسيحية التي كان البرابرة يعتنقونها شكلاً من أشكال الهرطقة. ووجهت اتهامات إلى الضباط من ذوي الأصول الألمانية بعدم الولاء للإمبراطورية، ومنعت عنهم المناصب المهمة، كما تعرضوا لشتى أنواع الاضطهاد. وأصبحت الإعدامات في صفوف الجنود من الأصول القوطية شائعة. وفي الحالات الأكثر سوءاً، كانت المذابح المنظمة والمذابح الجماعية تصب الزيت على نار الأحقاد المتقدة التي أدت في النهاية إلى نهب روما وتدميرها.

كان ستيليكو أحد أشهر ضحايا ذلك النزاع، وكان من ذوي الدماء المختلطة؛ فقد كان والده «بربرياً» - كان في الواقع ضابطاً في الخيالة الرومانية من أصول واندالية - وكانت والدته رومانية الأصل. كان ستيليكو نموذجاً مثالياً لمقدرة رجال من أصول غير رومانية على ارتقاء المناصب العليا في الإمبراطورية. بحلول سنة ٤٠٠ ميلادية، كان ستيليكو أحد أقوى الرجال في الإمبراطورية: فقد كان جنرالاً في الجيش الروماني ووالد زوجة الإمبراطور هونوريوس، إمبراطور روما الغربية. لكن ستيليكو، الذي كان بأمس الحاجة إلى متطوعين في الجيش الروماني، قام بتجنيد آلاف من المتطوعين البرابرة وضمهم إلى الجيش الروماني، سرت بعدها إشاعة مفادها أنه كان يخطط للإطاحة بالإمبراطور الشرقي وتعيين ابنه البربري

مكانه. وبالرغم من أن كل الدلائل التاريخية تؤكد على ولاء ستيليكو للإمبراطورية الرومانية إلى النهاية، فقد تم تصديق تلك الإشاعة. قام هونوريوس بتطليق زوجته، ابنة ستيليكو، وأعقب ذلك تمرد قام به الجنود الرومان الذين بدؤوا بقتل أتباع ستيليكو، وارتكبوا سلسلة من المذابح المنظمة ضد الجنود المنتمين إلى أصول بربرية، كما قاموا بذبح عائلاتهم بدم بارد، وتمت مصادرة ممتلكاتهم؛ كما قطعت رأس ستيليكو نفسه في شهر آب، أغسطس، سنة ٤٠٨.

أدت العداوة التي تفاقمت بين مختلف الأطراف إلى تهاوي روما بسرعة مدهشة. فالألمان الذين «تعرضوا لكافة أشكال البغضاء والاحتقار، تكونت لديهم مشاعر الكراهية نفسها لشعب أملوا يوماً بالمشاركة في أمجاده.» فقد انقلب الألمان الذين كانوا موالين يوماً للإمبراطورية ضد الرومان، وانضموا بذلك إلى المنتفضين ضد سلطة روما. انضم جنود ستيليكو من البرابرة إلى الملك القوطي ألاريك الذي ضرب حصاراً حول روما نفسها في خريف سنة ٤٠٨، وقام بنهبها سنة ٤١٠ ميلادية. أما فيسيغوس، فقد استولى على بلاد الغال سنة ٤١٩. كما استولى الواندااليون على قرطاجة، ومعظم المناطق الخاضعة لسيطرة روما في منطقة شمال إفريقيا، وقاموا سنة ٤٥٥ ميلادية بنهب روما مرة أخرى.

مع حلول سنة ٤٧٦ ميلادية انتهى أمر الإمبراطورية الرومانية الغربية التي لم يعد لها وجود، وحلت محلها تشكيلة من ممالك «بربرية» قوامها من المحاربين الذين يعدون أسلاف الأمم الأوروبية الحديثة. أما الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي كانت القسطنطينية عاصمة لها، فقد استمرت لألف سنة لاحقة. لكن هذه الإمبراطورية البيزنطية – التي كانت شديدة التعصب من الناحية الدينية، والتي لم تكن تتساهل مطلقاً مع أي شكل من أشكال التمرد الديني، وكانت تمزقها الصراعات الدينية، والمحاصرة بشكل مستمر من قبل الفرس والسلافيين، وبعد ذلك من قبل المسلمين – لم تستطع مقاربة عظمة روما القديمة [٣٦].

عندما كانت النظريات العنصرية أكثر رواجاً منذ حوالي قرن مضى، جادل بعض المؤرخين أن سبب سقوط روما يعود إلى أن العنصر الروماني «النقي» تلوث وذاب في دماء الشعوب التي فتحتها روما. إذا كان ما أزعمه صحيحاً، فإنني أقول إن العكس هو الصحيح.

بقيت روما مزدهرة طالما أنها كانت قادرة على أن تستقطب شعوباً ذات خلفيات عرقية ودينية متعددة، وتستوعبها وتكافئها وتختلط بها. كان الأفارقة والأسبان والبريطانيون والغاليّون يصلون إلى أعلى المناصب في الإمبراطورية عندما كانت روما في أوج قوتها - كان بإمكانهم في الواقع أن يصبحوا أباطرة - طالما كانوا مستعدين للتماهي مع الإمبراطورية. لكن تلك الإمبراطورية انتهت عندما استعمرت شعوباً فشلت في دمجها في كيانها، إما بسبب أن تلك الشعوب لا تقبل بمبدأ الاندماج، أو بسبب أن ثقافتها وعاداتها كانت تتجاوز قدرة روما على التسامح. تسببت روما في كثير من الحروب وحركات العصيان الداخلي التي لم يكن بإمكانها الانتصار فيها بسبب مزيج من التعصب العرقي والديني. عندما أرادت الإمبراطورية المحافظة على «نقاء» الدم الروماني والثقافة الرومانية والديانة الرومانية - مكررة بذلك الخطيئة نفسها التي وقعت فيها كل من أثينا القديمة وإسبارطة، والتي تحدث عنها كلوديوس وغيبون - لم يكن أمامها من خيار سوى الانهيار والتلاشي في غياهب التاريخ.